اللاسرد في رواية الإنطباع الأخير لمالك حداد
-مقاربة بنيوية-

السعيد بوطاجين
جامعة الجزائر

حدود الموضوع، حدود المسرود:

إرتأينا الإستهلال بحدود المسرود كمؤشر (indice) يحيلنا على العلاقة بين الحجم النصي (volume) وطبيعة البناء الحدثي (structure) (textuel) والنصي بشكل عام. (evenementielle)

تشتمل رواية الإنطباع الأخير (la dernière impression) على 169 صفحة، وهو حجم معتبر قد يوهم المتلقي بامكانية دخول النص في شبكة من العلاقات المركبة، لكنه سيصاب بخيبة انتظار (atttente deçue) عندما يكتشف أن الصدامات الممكنة لم تكن بالدرجة المتصورة.

والواقع أن عنوان الرواية، الذي اعتبرناه بمثابة «بنية متقدمة»(*) يوحي، في جزء منه على الأقل، بوضع الخطاب (1) (le statut du discours) لأن كلمة

انطباع تدل على الحالة والعرض أكثر من دلالتها على الحركة. ومن ثم أدركنا أن النص سيؤول إلى التراخي، وهي فرضية قبلية مستقاة من شعرية العنوان، وبالتالي احتمال تعارضها مع البنية اللاحقة.

تدور الرواية كلها حول رغبة تهديم الجسر، وهو البرنامج السردي العام المضمن للبنى الصغرى وللبرامج السردية الجزئية معا.

«- يجب أن يُهدم.

ثم يضيف ذاك الذي يسمى علي وعيناه شبه مغمضتين: يجب، يجب»(2).

في مطلع الرواية تماما يبدأ التأسيس للتحولات السردية، التي تبدو فعلية للوهلة الأولى، خاصة وأن النص يفاجئ المتلقي بمحو المقدمة: لا وقت للسارد لإدماج التقنيات الواصفة: المكان، الشخصية، الزمان ... إلخ. هناك فرضية تجلي تراكمات حدثية مبنية على السرد السريع المائل إلى تسبيق الحركة على الحالة.

أما المفارقة العينية الأولى فتكمن في عدم تآلف وضع العنوان مع وضع المقدمة الافتتاحية التي ابتدأت بالحوار مباشرة، وهو حوار دال على الشروع في العملية التحيينية مباشرة، دون الإشارة إلى العلاقات السببية بين الرغبة والفعل، لأن الرغبة مغيبة أصلا بفعل نوعية البناء، وسيأتي ذكرها لاحقا باسنادها إلى مبررات متفاوتة.

لماذا حدود المسرود؟

إن الرواية لم تتجاوز فكرة تهديم الجسر، الأمر الذي سيؤدي بالضرورة إلى محدودية الموضوعات والبرامج السردية التي بامكانها توليد حالات صدامية بين مختلف الذوات، وعلينا أن نتصور فيما بعد سبل ملء البياضات الحدثية (**) وعدد صفحات الرواية.

بالتأكيد أن الرواية ستتكئ على اللاسرد، أي على اللاحدث (3)، ليس من المنظور اللساني، وإنما من المنظور السيميائي، وبالضبط بالرجوع إلى البنية السطحية وعلاقة الذات الفاعلة بالموضوع، أي بكيفية انتقال الفعل اللفظي إلى فعل مادي مجسد حركيا.

منطق السرد /منطق اللاسرد: تحولات اللاسرد:

سنترك منطق السرد جانبا للبحث عن لمائية (le pourquoi) اللاسرد وكيفية انتظامه ووظائفه الممكنة، وعليه نشير إلى أن اللاسرد يتميز بكون الإنجازي صفرا (4)(opérateur zero) وهو المصطلح الذي عمل به تودوروف عند دراسة التحولات السردية.

وإذا كان الفعل التحويلي في الدرجة الصفر، أدركنا، ولو نسبيا، كيفية انبناء النص والطابع المهيمن عليه. وحتى نوضح الفكرة نعود إلى مطلع الرواية، وبالضبط إلى قوله:

«يجب أن يهدم» (5)

إن هذه الجملة ستظل فعلا قوليا إذا حافظت على صيغتها ولم تتحول إلى شكل مغاير: «هدمت مثلا»، وذلك يتطلب فعلا تحويليا يسند إلى ذات ما، ونحن لا نريد في هذا المقال الدخول في جزئيات الكفاءة كما وردت عند السيميائيين. إنما نشير إلى أن أبرز التحولات وقعت على مستوى اللاسرد وهي من نوع: «س» كان مرحا و«س» أصبح حزينا.

ونحن نعتقد أن هذه التغيرات، مهما كانت عللها ودرجة خفوتها، هي جزء من البنية العامة، ولعلها أهمها، ومن ثم ضرورة الاهتمام بوضعها العام في الرواية.

سنستعين قليلا بمقاربة تودوروف ونضيف بعض ما رأيناه مهما أو مضيئا للجوانب الخفية.

1 - **التحولات البسيطة:**

أ - تحولات الصيغة: وهي من نوع الوجوب والقدرة. ولعل ما يميز الرواية، هو طابع هذين العنصرين، إن نحن أخذنا ضرورة تهديم الجسر وجوبا كما يظهر في التجليات اللفظية.

إن هذا الوجوب له مبرراته النصية المتمثلة في موقف علي من الاستعمار، وقد ورد في أشكال غير مباشرة وفي رؤيته للأشياء وتأملاته الدالة على تموقعه، الشيء ذاته بالنسبة للقدرة. وإذا كان الوجوب حالة ثابتة، فإن القدرة تطورت مع الوقت لتنتقل من قدرة القول، القائمة على الفعل الإقناعي، إلى قدرة الفعل عندما يتم تحطيم الجسر، وهو كما نرى يمثل تحولا في العلاقة بين الذات والموضوع، أي أن علاقة الفصل تغدو علاقة وصل، غير أن هذا التحول هو تحول على مستوى السرد، وسينتج بالضرورة تغيرا على مستوى الحالة.

ب - تحولات الرغبة: الظاهر للعيان أن الرواية انبنت على رغبات أحادية وقارة، وللتدليل على ذلك نستشهد بهذه العينة التمثيلية: لقد أحب الشريف، صهر السعيد، الهجرة إلى فرنسا، ورغم المعارضة الواضحة من قبل الزوجة والشخصيات الأخرى تظل الرغبة ثابتة لأن الفعل الإقناعي لا يؤدي وظيفته التحويلية:

«ماذا يقول سعيد لصهره، لأن الشريف لا يفهم لغة المشمش والعناكب وإطارات الدراجات القديمة».

الشيء ذاته بالنسبة لرغبات علي وسعيد التي تتسم بقناعات قبلية تظل في مستوى واحد من بداية النص إلى آخره، وهي لا تظهر للعيان على المستوى الصريح.

جـ - تحولات النتيجة: تنتهي الرواية بهدم الجسر، وهذا لا يهمنا من حيث الفعل. ثمة تحول للحالة الأولية التي ستشهد انزلاقا على مستوى آخر: موقف الشخصيات، والموقف حالة، نتيجة للعلاقة السببية بين الفعل كحركة وبين ما ينتجه الفعل على مستوى الإحساس.

: «العلامة ناقص. ضع سطرا. ضع علامة يساوي. اليوم إنها هنا، العملية، إنها هنا عملية الطرح. إنها هنا لحما وعظما. ناقص ابراهيم، ناقص رابح، ناقص محمد، ناقص العيد، ناقص رشيد، ناقص جمال..»(6).

وهذا يعني، أن تغير الوضع الأصل، بين الذات والموضوع، قد يؤدي إلى تغير على مستوى الحالة، بغض النظر عن الجانب التقويمي لوضع الحالة.

د - تحولات الطريقة: يبدو لنا هذا العنصر غاية في الأهمية، لأن تغير الكفاءة، أو الطرق التحيينية (التحقيقية) مجتمعة لا تشترط سردا قصصيا تحويليا لإمكانية انبناء الكفاءة على عناصر متنوعة. هناك في الحقيقة إضمار لهذه الكفاءة، بمفهومها السيميائي، ولا توجد تجليات نصية دالة عليها. إنها تكمن في المسكوت عنه الذي يحتمل ظهور تأويلات متباعدة. هناك عرض لعلاقات وتأملات وانطباعات تشكل مجتمعة حالات سببية (états causatifs) ذات انتشار واسع، وهي التي ستؤدي إلى الفعل: هدم الجسر، دون أن يشير السارد إلى الطريقة. هناك مباغتة مفصولة عن السياق العام الذي يتألف من حالات ومواقف لها مقوماتها البنائية التي لا تمتلك أية علاقة بالبرنامج السردي العام، إنها تعرية للذات الضديدة الفرضية أو تأملات مشتتة:

يقول السيد رولان (Rolland)

«قبل أن تمس شعرة مني أقتل ثلاثة أو أربعة.

علينا الاعتراف بأن ثلاثة أو أربعة عرب مقابل شعرة واحدة أمر كثير. إن الإستعمار لم يعرف أبدا معنى النسبية» (7).

نلاحظ أن هناك ثنائية سببية مشكلة من موقف وموقف من الموقف، دون أية إشارة إلى الفعل الفرضي (faire virtuel)، أو إلى أي تسويف أو مؤشر دال على إمكانية الانتقال إلى تثبيت الذهني.

هـ - تحولات الطابع: أشار غريماس Greimas إلى التقارب الموجود بين النوع وطابع الفعل، لكننا نلاحظ أن رواية الانطباع الأخير ذات خاصية متفردة لوشوك انمحاء العلاقات السببية بين الرغبة والفعل ولانحائها الكلي في كثير من الحالات.

لا يوجد أي مؤشر دال على الانتقال إلى الانجاز على شاكلة: لقد بدأ سعيد في تهديم الجسر. أو لقد اتجه نحو الجسر لتفجيره. هناك خاتمة فقط، دون أي تدليل على الخطوات المتبعة، لذا بإمكاننا اعتبار اللاسرد في وضعه العام بمثابة طابع ضمني، وسيصبح اللاسرد جوهرا والسرد عرضا لأن هذا الأخير لا يؤهل إلى إدراك الحركة.

و - تحولات الوضع: ليس هناك تحول للوضع، بالمفهوم الحرفي «لبروب» Propp، إن نحن ركزنا على البرنامج السردي الأساسي، أو على جملة: «س لا يقوم بارتكاب ...» أو سعيد لا يهدم الجسر، لا يوجد في نهاية المطاف أي تراجع عن الرغبة. هناك تدعيم لها بطريقة مفارقة، ضمنية وخافتة بحيث يتعذر على المتلقي، في كثير من الحالات إدراك الوضع والوضع المضاد (anti-statut) إلا بالتدقيق في بعض الملفوظات.

«إن هذا الديك يعيش مقلوبا، كل مساء، وبشكل عنيد، يعلن عن قدوم الصباح. وكان سعيد يمزح مع أمه قائلا: ديكك وجب أخذه عند الساعاتي ...» لإصلاحه طبعا.

وابتداء من 1 نوفمبر 1954، أصبح بوزيد يردد:

- «إن هذا الديك ليس غبيا كما نتصور، إنه لا يتقدم، نحن الذين نتأخر»(8).

وعلينا في نهاية الأمر الكشف عن ثبات الوضع بالعودة إلى عدة أنماط بلاغية، لا تبين هذا الوضع بجلاء، وإنما تحيل عليه كما نتبين في ملفوظ بوزيد:

«في نهاية الأمر يحيا العرب»(9).

2 - **التحولات المركبة:**

أ - تحولات المظهر: ويتعلق الأمر هنا بـ«التمييز بين الباطن والظاهر»(10). وقد نجد شيئا من التناقض بين الباطن والظاهر في مواقع محدودة: على شاكلة ، س. يتظاهر ب...

وعلينا الإشارة إلى هذه العينة للتدليل على مفعول التضاد وقيمته التحويلية، ليس بالعودة إلى قيمة الفعل في حد ذاته، وإنما إلى قيمة منتوجه: إلى الحالة المترتبة عنه.

يقول السارد عن السيد «ريفيير» (Riviere)

«كان القانون مثله الأعلى في الانسانية. كان في شهر رمضان، وبحجة عدم فرض على الموظفين المسلمين عملا إضافيا في المطبخ، يمنع على الداخليين وجبة الليل، الأمر الذي يجعل الصيام أكثر صعوبة»(11).

والحال أن هذا المظهر هو الذي كان مهيمنا على العلاقات بين الجزائريين والفرنسسين، بين الداعين إلى التغيير وبين المترددين والرافضين.

ب - تحولات المعرفة: وهي تقوم على أفعال من نوع، لاحظ، علم، أدرك، تنبأ، استنتج. وهذا يعني أن تحول المعرفة قد يؤدي إلى تغير الوضع والموقف معا، الأمر الذي قد ينتج حالة نقيضة قد تسهم في تحولات حدثية واضحة. وذلك ما يحدث عادة. وهو ما ينطبق على بوزيد تماما في المثال الذي أشرنا إليه سابقا. لقد كان يعتقد بضرورة إصلاح الديك، وابتداء من

أول نوفمبر 1954 أدرك أن الخلل ليس في الديك، وإنما فينا نحن الذين نتأخر. وهذا الإدراك سيؤدي لاحقا إلى تغيير الموقف والحالة، وسيكون ذا علاقة سببية مباشرة في انتاج فعل جديد ومعنى جديد.

جـ - تحولات الوصف: ويتعلق الأمر بأفعال من نوع: سرد، قال، شرح ... ويمثل تودوروف لذلك بقوله: «س» أو «ع» يقول إن «ع» ارتكب جريمة(***). وهي كما نلاحظ أفعال غير حدثية لاعتمادها على الطابع النقلي العارض للمادة المسرودة:

«بحث الشريف عن الكلمات:

أخوك كان صادقا جدا، لا يعرف ما يفعله. كنت أقول له دائما ...»(12)

إن المقطوعة اللاحقة هي من نوع «تحولات الوصف» من وجهة نظر تودوروف، ونحن لسنا بحاجة إلى مناقشتها، المؤكد أنها مقطوعة ناقلة لقول سابق، ومهما كان هذا القول، حدثيا أم لا، فإن الحدثية المحتملة منتهية ولا وظيفة لها في تحريك النص أو دفعه، بل أنها ستسهم في تضخمه: أي في انتشار لحظات التوقف أو المقطوعات ذات الطابع المشهدي.

د - التحولات الذاتية: وهي عادة ما تقوم على الانطباع، أي على تباين الأصوات السردية وانزلاقاتها الفرضية، والمقصود هنا الموقف الشخصي للذات أو للسارد من موضوع السرد، دون أي تحديد لطبيعته أو لحجمه. كأن يكون فكرة جزئية عارضة أو قضية جوهرية.

ونحن بامكاننا، من أجل تبسيط أكبر، الحديث عن الانطباع بمفهومه المتداول، والحقيقة أن الإنطباع هو إحدى الميزات المهيمنة على «الانطباع الأخير» إنه أحد الموضوعات.

- «الحرب مهما كانت عادلة، هي عادة صعبة الإتباع، عادة تتبع إلى غاية تآلف الديكور الجديد مع الممثلين»(13).

- «الناس الذين يعتقدون أنهم متحضرون هم أناس أغبياء إلى درجة اعتقادهم بأن لهم الحق في صنع المطريات»(14).

- «أن تخون معناه، أن تشكك في حقيقة الآخرين»(15).

- «من الغباء أن يموت المرء بعيدا عن قبره»(16).

إن تعليقات من هذا القبيل، ليست بحاجة إلى أي تدليل كيما نثبت قيامها على الذاتية، على الموقف من الآخر ومن الحياة في لحظة معينة وفي مكان معين لاعتبارات نصية. وعلينا أن نلاحظ فيما بعد أن الموقف ليس حركة، إنه حدث لفظي بالتأكيد، غير أنه لا يسهم في تكوين السرد القصصي، رغم أنه قد يكون حافزا على انتاج الفعل لاحقا. وقد يسهم في عدة تحولات أخرى: الرغبة، الطريقة، الطابع، المعرفة ... الخ.

هـ - **تحولات الطبع:** وترتبط بأهم التغيرات التي تحدث للذات بعد الفعل. وإذا كان علم النفس قد اهتم بها من زاوية نظره فإن البنيوية أخذت تحولات الطبع من زاوية نظر أخرى وبأدوات اجرائية مختلفة.

بامكاننا الاستعانة في هذه الحالة بالعلامات المشكلة للتغير: الكلمات، السمات، الصور وغيرها. وهي مجموعة من المحفزات التي قد تسهم في قلب المعنى، وفي منح النص شعريته (****).

استراتيجية المعاودة

سوف نترك جانبا جماليات المعاودة لكننا نقول إن المعاودة اللاسردية أضحت موضوعا من موضوعات الكاتب، أي تقنية غاية (technique-objet)، شأنها شأن المعاودات السردية القائمة على الأفعال التحويلية.

من المتعذر على المتلقي عدم الإنتباه لهذا الحضور الجلي للمعاودة اللاسردية التي وردت على عدة مستويات:

- معاودة الكلمة
- معاودة الفعل الواصف
- معاودة الصفة
- معاودة المعنى
- معاودة أسماء الذوات ... إلخ.

ونحن ليس بوسعنا الإلمام بكل هذه المعاودات لأنها ظاهرة بحاجة إلى بحث مستقل، ولكننا نقدم عينات توضيحية لا تسهم في تثبيت الحالة وتدعيم الدلالة وحسب، بل أنها ستعمل، كحالات قارة محفزة، على خلق أفعال:

- «لوسيا (Lucia) التي تعرف الحديث عن اسم الزهور، لوسيا في موسيقى الفجر، لوسيا البعد الخامس (...) لوسيا في شارع العرب (...) لوسيا في غابة شجر البلوط في الساعة التاريخية للأغاني الأولى»(17).

- «كان السيد روجان (Rogin) دبا منذ القدم. كان دبا طيبا، ولكنه دب»(18).

- «سيد رولان (un monsieur Rolland) يحب الكسكسي (...) سيد رولان صغير جدا، خبيث جدا (...) صديق قديم، «أخ» قديم (...) فرنسي قديم طيب، فرنسي قديم ليس كالآخرين. أب قديم ...»(19).

- «غدا، الحكاية الصغيرة، اللامعنى الصغير، الحضور المفارق لزهرة سوداء على ثلج أبيض، غدا، غدا، تقول الريح التي لا تؤمن بالله»(20).

قدمنا هذه النماذج المحدودة لتبيان كيفية اشتغال النص وإنتاج المعنى. لقد أضحى بدهيا أن المعنى يكمن في الاختلاف. لكننا نرى أن التشابه القائم على المعاودة قادر بدوره على انتاج المعنى: هناك اختلاف في إطار التشابه. وهو الذي سيمنح للنص دلالة.

نشير إلى أن مثل هذه المعاودات والتوقفات والمقطوعات الوصفية التي

هيمنت على الرواية بشكل مثير ستسهم في التضخم النصي، ومن ثم ميل النص، في أغلب فتراته إلى الخفوت الكلي.

والحال أنه بامكاننا قياس المسافة بين الرغبة والفعل لإدراك نوعية البنية، فبالاضافة إلى ندرة الرغبات هناك مسافة طويلة بين الرغبة والفعل، أي بينها وبين الشكل التحييني، وعليه سيلجأ السارد إلى ملء هذه المسافة باللاسرد، الوصف، التوقف، الإنطباع، التأمل.

لكن، علينا ألا نفكر بأن هذه البنية اعتباطية أو اضطرارية، إنها طريقة وغاية جمالية.

الإحالات:

(*) – لا يوجد هذا المصطلح في الدراسات الأدبية، وقد اقترحناه على غرار مصطلح pre-récit الدال على شيء من الفرضية الدلالية، أما استعمالنا للبنية المتقدمة pre-structure، فللتدليل على بنية محتملة.

(1) – استعرنا كلمة وضع من المعجم الموحد، وهناك عدة ترجمات متباينة لكلمة statut.

المعجم الموحد، مصطلحات اللسانيات (انجليزي، فرنسي، عربي) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1989، ص 135.

(2) – Malek Haddad, La dernière impression, éditions Bouchene, Alger, 1989, p. 9.

(**) – يقصد بالبياضات الحدثية لحظات امحاء السرد القصصي وتغييب الأفعال التحويلية مما يحدث تضخما نصيا خال من الحركة، وقد تذهب اللسانيات إلى موقف آخر فتعتبر القول شكلا من أشكال الفعل اللفظي، وهذا أمر لا يحتاج إلى أي تعليل. أما ما نقصد هنا فيتعلق بالعملية التحيينة، أي نقل الفعل إلى واقع وتجسيده حدثيا.

(3) – القول هو فعل لفظي من المنظور اللساني، وهذا ما يشير إليه «أوستان» وغيره.

J.L. Austin, Quand dire c'est faire, Seuil, Paris, 1972.

(4) - T. Todorov, Poétique de la prose, Seuil, Paris, 1978, p. 123. ، ونحن نفضل استعمال كلمة منجز بدل كلمة انجازي المستعملة في المعجم الموحد.

(5) – La dernière impression, p. 101.

(6) – المصدر نفسه، ص 169.

(7) – المصدر نفسه، ص ص 70-71.

(8) –المصدر نفسه، ص 60.

(9) –المصدر نفسه، ص 61.

(10) – Poétique de la prose, p. 126.

(11) – La dernière impression, p. 42.

(***) – يلاحظ القارئ أن هناك خللا ما، لأن العينة التمثيلية المذكورة لا تنطبق على العنوان وعليه سنكون أمام وضعين: تغيير العنوان واستبداله بـ«الصوت السردي» الناقل للموضوع أو تغيير الأفعال سرد، قال، شرح بأوصاف، وهذا ما لا يتفق وفكرة تودوروف. وعليه يكون استبدال العنوان أقرب إلى الصواب.

(12) –المصدر نفسه، ص 95.

(13) –المصدر نفسه، ص 17.

(14) -المصدر نفسه، ص 21.

(15) –المصدر نفسه، ص 94.

(16) –المصدر نفسه، ص 100.

(****) – نقصد أن الفعل سيؤدي إلى نتيجة حتمية، وهذه النتيجة الحتمية ستعكس حالة ذات علاقة سببية بنوعية الفعل. وعليه أمكننا تنظيم الطبائع الناتجة عن ذلك في مجموعة بسيطة من الحالات: قتل – حزن، أكل – لذة. وهنا تظهر محدودية المعاني.

(17) –المصدر نفسه، ص 54.

(18) –المصدر نفسه، ص 55.

(19) –المصدر نفسه، ص 71.

(20) –المصدر نفسه، ص 83.